**المحاضرة التاسعة:**

**الفلسفة المسحية من نهاية عصر الآباء إلى بداية المرحلة المدرسية:**

(من القرن الخامس إلى القرن التاسع)

**1-الحياة الفكرية في القرنين السادس والسابع:**

مع نهاية القرن الخامس اجتاحت القبائل الجرمانية الامبراطورية الرومانية الغربية وانهارت بذلك الحضارة الرومانية ومعها الثقافة الرومانية العقلية، وأصبحت الثقافة بعد ذلك تبتعد عن ما هو عقلي وثني إلى كل ما هو روحي وديني، وبالخصوص أن بعد أن انتشرت المسحية وأصبحت الديانة الرسمية، وألت الأبحاث والجدالات الفلسفية والعقلية من المدارس اليونانية الرومانية إلى الأديرة المسيحية، وأصبح الفكر شيئا فشيئا تابعا للدين، وأصبح التنظير الفكري من اختصاص رجال الدين بعدما كان من اختصاص الفلاسفة، وأصبحت القضايا الفكرية تعالج ليس وفق منطلقات العقل الوثني وإنما وفق أفق المسيحية ومنطلقات.

إذا كانت الحياة الفكرية عرفت نشاطا كبيرا في مرحلة آباء الكنيسة إلا أنه بعد موت القديس أوغسطين تراجعت بشكل كبير، وبقيت بعض المسائل التي كانت أخذت حيزا من التفكير تلك المتعلقة إما بهوية السيد المسيح هل هو إله أم انساني؟ وكذا الحدود التي تفصل بين ألوهيته وانسانيته؟ وهل يملك طبيعة واحدة أم طبيعتين الهية وانسانية في شخصه؟ وإما تتعلق بصلة الأقانيم الثلاثة فيما بينها.

ذكرنا أن الحياة الفكرية بعد مرحلة الآباء وسقوط الامبراطورية الرومانية أصيبت بالهزل وبالأنيميا الفكرية، فالإضافة إلى النقاشات التي دارت حول هوية السيد المسيح ظهرت بعض الشخصيات القليلة التي برزت في القرن السادس ميلادي والتي شكلت استثناء عن القاعدة ونذكر منها بوثيوس ودنيس المنحول. وسنحاول الاشارة إليهما كتعريف لهما دون التفصيل في انتاجهما الفكري:

1. **بوثيوسBoèce**  (470-525م) ولد من عائلة رومانية مرموقة، تعلم الفلسفة والأدب في أثينا، عين وزيرا في عند أحد ملوك إيطاليا ولكن سجن بتهمة التآمر على مملكته وبممارسة السحر والتنجيم، فسجن جراء ذلك، ولم يلبث طويلا حتى أعدم بعد عذاب شديد. وفي فترة مكوثه في السجن ألف أحسن كتبه "عزاء الفلسفة". يعد بوثيوس أفلاطوني حتى النخاع وحاول أن يعقد تصالحا بين أفكار أفلاطون وتلميذه أرسطو. يقسم الدارسون كتب بوثيوس إلى ثلاث مجموعات الأولى تتناول الفنون الحرة حيث قدم فيها ترجمات وشروحات لبعض كتب أرسطو المنطقية منها: المقولات، التحليلات الأولى والثانية، الحجج السفطائية، واساغوجي لفرفوريوس، كما له ألف رسائل في المنطق والحساب والموسيقى. أما المجموعة الثانية فتضم قضايا لاهوتية بحتة مثل مسألة الثالوث وطبيعة السيد المسيح...إلخ. أما المجموعة الثالثة فهي فلسفية وأشهر كتبه الفلسفية: عزاء الفلسفة.
2. **دنيس المنتحل Pseudo-Denys** ظهر في أواخر القرن الخامس وبدايات القرن السادس.[[1]](#footnote-1)\* له تأثير كبير على فلاسفة العصور الوسطى مثل: سكوت اوريجسن، ألبير الكبير وتوما الاكويني. من كتبه: الأسماء الإلهية، التراتب السماوي، التراتب الكهنوتي. في كتاباته حاول دنيس التوفيق بين اللاهوت المسيحي وفيلسوف الأفلاطونية المحدثة بروقلوس Proclus (410-485) تمام مثلما فعل أوغسطين الذي حاول التوفيق بين المسيحة والأفلاطونية المحدثة ممثلة في أفلوطين. عالج في كتاباته قضايا متعلقة بالألوهية وطرق معرفة الله، وما يمكن أن ننسبه إلى الله وما لا يمكن، كما تناول مسألة أسماء الله وصفاته، وكان يميز بين المعرفة الايجابية والمعرفة السلبية حينما يتعلق الأمر بالذات الالهية...إلخ. كان تأثير دنيس المنحول كبيرا على الفلاسفة المدرسيين الذين جاءوا بعده مثل جون سكون ارجين والقديس أبيلار وتوما الإكويني.

هذه الشخصيات الفكرية التي ذكرناها بثت روحا في الجسد الحياة الفكرية الذي كان ينخره الجهل والتعصب، وكان لها أثرها في عصرها والذي جاء بعدها، إلا أن الوضع العام الذي ظهرت فيه كان شبه ميت من الناحية الفكرية. لكن مع النصف الثاني من القرن الثامن ظهرت إرادة سياسية قوية، ممثلة في الإمبراطور شارلمان، في بعث العلوم والآداب وتفعيل وتنشيط الفكر الذي كان في حالة روك. هذه الجهود التي قام بها الامبراطور شارلمان للنهوض بالفكر تعرف تاريخيا بالنهضة الكارولينجية.

2- **النهضة الكارولينجية: من نهاية القرن الثامن وبدايات القرن التاسع.**

لم يهتم امبراطور أوروبا الغربية شارلمان بالجانب السياس والعسكري فقط وإنما أيضا بالجانب الثقافي والفكري، حيث عمل على استقدام العديد من المفكرين والمثقفين والمربين من كل أنحاء أوروبا إلى مملكته لبعث الروح في الحياة الفكرية بعد أن تراجعت نتيجة تراجع الثقافة الرومانية بشكل ملحوظ في القرنين السادس والسابع. حيث ساد الاعتقاد، بعد أن أحكمت الكنيسة قبضتها على الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، أن التراث الروماني يشكل خطرا على الايمان لأنه يدعو إلى الوثنية، واتهم على أنه فكر منحرف يدافع عن حياة الملذات والمتع في حين المسيحية تبحث عن الخلاص وتحرير النفس من الخطيئة. هذا الاعتقاد أثر سلبا على المفكرين والشعراء والأدباء عموما، حيث لم يكن لهم مسموحا التفكير بشكل عقلي ولا التغني بالحياة وجمالها، ولا حتى التعبير عن انفعالاتهم وعواطفهم إلا في الإطار الذي تحدده الكنيسة، لم تتراجع الحياة الفكرية فقط وإنما أيضا تراجعت اللغة اللاتينية ومدى التمكن منها حيث انشرت الأخطاء اللغوية والنحوية وقل عدد الذين يجيدونها ويتقنونها.

لم يكن التعليم متاحا للجميع ولم يكن أيضا يمارس بشكل حر بل كان التعليم مخصصا لفئات معينة، وكان يمارس تحت وصاية الكنيسة التي احتكرت كل شؤونه. ومن أسباب هذا التراجع تعود إلى أن المراكز العليمة كانت تقتصر على تقديم معارف سطحية لا تتحاوز تعليم الكتابة والقراءة وقواعد اللغة اللاتينية وبعض التعاليم الدينة. كما أن المدارس التي كانت موجودة في الأديرة كان مهمتها الأولى تلقين التعاليم الدينية وتكوين القساوسة ورجال الدين في المستقيل (تعليم ديني بحت) وإذا كانت تعلم بعض العلوم الدنيوية مثل الحساب والفلك والموسيقى... إلا أنها كانت لأغراض لاهوتية بحتة كحساب مواقيت الأعياد الدينية وأداء الأناشيد الدينية...إلخ.

وفي مقابل هذا الوضع الفكري والعلمي المتردي عزم شارلمان على إحياء الحياة الفكرية وتحسينها وذلك من خلال استقدام العديد من المثقفين البارزين آنذاك من كل أنحاء أوروبا. ومن بين اللذين جلبهم نذكر: بطرس الذي كان متخصصا في قواعد النحو واللغة اللاتينية والمؤرخ بولس الشماس اللذان استقدماهما من ايطاليا، ومن إسبانيا استدعى الشاعر ارجوبارد، ولكن من أشهر الشخصيات التي استقدمها كان ألكوين Alcuin (730-806) من انجلترا.

سعى شالمان في سياسته على تطوير التعليم وتحسينه وكذلك دمقرطته فلم يعد مقتصرا على أهل البلاط فقط وإنما أيضا من خارجه، ولم يكن التعليم مقتصرا على الأغنياء وإنما على كل من يرغب في الدراسة سواء كان فقيرا أو غنيا، وتكفل بعملية جمع الكتب القديمة من أجل اثراء مكتبات المدارس والأديرة. كما حرص في نمط التدريس على إحياء الدراسات الدينية والفلسفية والأدبية وتلقين الفنون الحرة ليست فقط في بلاطه وإنما في كل أنحاء مملكته، حيث أنشأ مدارس في كل الأديرة وفي كل الكاتدرائيات والأسقفيات. وبقي الإمبراطور شارلمان في دعم وتجديد الحياة الفكرية إلى غاية وفاته سنة 814م.

لم يكن عصر شالمان عصر اكتشاف وابتكار فهو لم يكن يحث المفكرين والمعلمين الذين استقدمهم على ابتكار أشياء جديدة أو أن يجعلوا الدين تابعا للعلم والفلسفة أو اعلاء العقل على النقل وإنما كان مبلغ همه هو توظيف العقل من أجل فهم تعاليم الدين وإذا كان لم يكن يهدف إلى الابتكار والتجديد فإنه كان يسعى إلى اعادة احياء ما كان موجودا من تراث فكري وفلسفي وديني وصيانته وحمايته من الاندثار. وأهمية النهضة التي قام بها شارلمان هي أنه تعد لبنة من لبات التي هيئة الوضع لانطلاق النهضة الفكرية التي حدث في القرن الثاني عشر، فمن العادي جدا أن تكون النهضة الكارولينجية قامت على التقليد والاستيعاب والنقل لتعقبها مرحلة التجديد والابتكار. وعموما يمكن القول أن النهضة الكارولينجية هي التي شكلت القاعدة لقيام الفلسفة المدرسية.

1. \* اختلف الباحثون حول تحديد شخصية دنيس المنحول وفي زمن ظهورها، ورغم هذا الاختلاف الذي فصل فيه لاحقا، إلا أن المهم هو ليس معرفة الشخص نفسه وإنما تأثير كتاباته على المكرين الذين جاءوا بعده. [↑](#footnote-ref-1)